ما رأي المجامع والمختصين في مزج الضاد بالظاء ؟ !

بقلم : محمد شيت صالح الحيّاوي

هناك بحوث كثيرة قديماً وحديثاً في الفرق بين حرفي الضاد والظاء صوتاً وخطاً. وآخر ما طالعتُه بحثان مهمان لدكتورين فاضلين هما عبد الله الجبوري (ج) في مجلة (الضاد) العراقية بعنوان (بغية المرتاد لتصحيح الضاد) شباط 1988 / وكامل مصطفى الشيبي(ش) في جريدة (العراق) بعنوان (العربية أهي لغة الضاد أم لغة الظاء ؟) 23 ــ 2 ــ 1988 حيث عرضا معلومات عززت فكرتي. هذه الفكرة التي طالما قلّبتُها ومحّصتها حتى تأكدت من صحتها وصلاحيها، فحواها أن حرف الضاد في حقيقته هو لغز محير ولكنه قابل للحل وفي الامكان علاجه والتخلص من مشكلاته. ذلك أننا إذا استعرضنا تاريخ هذا الحرف وتطور أحواله وما قيل فيه وعنه فسنصل إلى نتيجة تدل على أن صوت هذا الحرف إما أن يكون معقداً بعيداً عن الأصوات الطبيعية التي يستطيع الانسان أن ينطق بها وإما أن يكون صوتاً ضائعاً أو مجهولاً ملتبساً بغيره. وفي جميع هذه الحالات لا يعد ــ في رأيي ــ حرفاً بل شبحاً لحرف مفقود، أرى إلغاءه خيراً من بقائه إذا لم يؤثر حذفه على اللغة ألفاظاً وكلمات ومعاني، الأمر الذي سأوضحه فيما هو آت :

(1) مخرجه ونطقه : ــ يقول (ج) (فوضع علماء العربية لعلاج هذا الصوت الرسائل والكتب ونظموا المتون من القرن الثالث إلى يوم الناس هذا ...ومن هؤلاء العلماء ابن غانم المقدسي...في كتابه ــ بغية المرتاد لتصحيح الضاد ــ ...وخلص إلى أن الضاد المنطوقة في عصره هي غير الضاد العربية القديمة.). وأكد (ش) هذه الحقيقة فيما نقله عن الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه ــ الأصوات اللغوية ــ وفيما نقله عن الجاحظ بقوله (إن نطق الضاد كان يتم بإلصاق سطح مقدم اللسان بين الناب والضرس العلويين الأيمنين لا كما نفعل الآن بوضعه تحت القواطع العليا.)

وأكدها آخرون منهم الأستاذ المرحوم طه الراوي في كراسة مخطوطة بقوله (فإن الضاد تخرج من طرف اللسان مستطيلة إلى مايلي الأضراس من الجانب الأيسر ــ وهو أيسر وأكثر ــ أو من الجانب

الأيمن — على قلة — وهي منفردة بهذا المخرج لا يشاركها فيه حرف ما).

وهناك تفصيلات كثيرة واختلافات واسعة في الحديث عن مخرج الضاد ليس لها فائدة عملية مطلقاً، ولذلك لا أرى ضرورة لهذه الأعمال العضوية الصعبة والاشغال اللسانية الشاقة التي لن تكون محصلتها إلا الارهاق أو العجز أو الاستحالة.

(2) إبداله والاختلاف فيه: — يقول (ج) (لقد لمس المؤلف في القاهرة نطق الضاد دالاً وأرى أن تفشي هذه الظاهرة أمر خارج عن السنن عند العرب الصرحاء... ونطق الضاد دالاً مفخمة أو طاء ظاهرة عرفتها العربية قديماً في بعض لهجاتها وهي الآن مستعملة عند المصريين وأهل المغرب ... ومنهم من يخرجها لاماً مفخمة وهم الزيالع ومن ضاهاهم.) أقول في بعض الانحاء من اليمن والسودان. ويؤيد (ش) هذه الظاهرة أيضا في كتاب — العاطل الحالي — لصفي الدين الحِلّي، وزاد في قلب الضاد زايا مفخمة فيمن قرأ — ولا الضالين : ولا الزالين.

(3) إبدال الضاد ظاء : — يقول (ج) : (ذكر المقدسي في الفصل الأول خبر تطور الضاد ظاء وعززه في الفصل الثاني وأن التلفظ بالضاد شبيهة بالظاء هو الصحيح وهو المنقول عن كلام العلماء... دعم مذهبه فيما يدل بالمعقول على أن اللفظ بالضاد كالظاء المعجمة .. إلى أن أهل مكة المكرمة وهي منشأ النبي سيد العرب وما والاها من بلاد الحجاز إنما ينطقون بالضاد شبيهة بالظاء المعجمة).

(إن هذا الحرف ليس في الحروف حرف يعسر على اللسان غيره، والناس يتفاضلون فيه فمنهم من يجعله ظاء مطلقاً وهم أهل الشام وبعض أهل المشرق ... إن الضاد شبيهة بالظاء وقريبة منها كونها ممزوجة بها غاية الامتزاج بحيث يخفى الفرق على المجيدين لفن التجويد فإنها حينئذ تكون حرفاً خارجاً عن الحروف العربية المستعملة.). (وإن من قرأ في صلاته الضاد ظاء أو ذالاً في آية — غير المغضوب عليهم ولا الضالين — لا تفسد ومن قرأ بالدال تفسد... وتوجيه قراءة من قرأ — ولا الضالين — بالذال أو بالظاء ان الضاد هو قسيم الذال المفخمة والظاء قسيم آخر للضاد.)

وزاد (ش) قولاً فيما نقله عن الجاحظ في البيان والتبيين عن صعوبة التفريق بين صوتي الضاد والظاء في كلمة ظمياء — ضمياء مثلا وفيما رواه عن السيوطي في المزهر في كلمتي ظحى وضبي — ضحى وظبي.

وجاء في كراسة الراوي مارة الذكر (يعسر على كثير من حملة الأقلام التفريق بين هذين الحرفين لفظا وخطاً فنجد الجم الغفير من الناس يلفظون الضاد من مخرج الظاء، على أن الانحراف على السراط السوي في هذا الشأن داء قديم وذلك لأن الضاد أصعب الحروف مخرجاً وقد أدّى النطق بها إلى الخطأ في كتابتها).

مما تقدم يظهر الحل واضحاً للتخلص من هذه المعضلة التاريخية أي التفريق بين الضاد والظاء لفظاً فخطاً ذلك التفريق الذي كان ولا يزال مدعاة للاختلاف والمتاعب والصداع !.

الحل الذي لا بد منه ولا حل سواه هو إلغاء حرف الضاد والاستعاضة عنه بحرف الظاء أي مزج الضاد بالظاء ليصيرا حرفاً واحداً، والحروف سبعة وعشرين ؛ إن الاختلاف بيني وبين (ش) هو أنه يقدم الظاء ليكون أولاً ويفضله على الضاد ليكون ثانياً فالغاية من بحثه وشرحه تقتصر على اختيار الدرجة الأولى والعنوان الأصلح كما سنرى. أما أنا فأريد إلغاء الضاد وحذفه من الحروف الهجائية والاكتفاء بالظاء لكليهما استقواء بشواهد عديد من الباحثين في علوم العربية والأصوات والأقراء

والتجويد كما رأينا نص المقدسي في الفقرة الثالثة التي سلفت حيث قال : (كونها ــ أي الضاد ــ ممزوجة بها ــ أي بالظاء... فإنها تكون حرفاً خارجاً عن الحروف العربية المستعملة).

واستبصاراً بقول (ش) : فإذا كانت الضاد على هذه الصورة من التغيير و لم يشر إليها قديماً وليس على صعوبتها دليل ولا يراعى نطقها الأصلي الآن فأي داعٍ غير السماع المتأخر يدعونا إلى تمليكها على اللغة العربية وتجنيد العرب تحت لوائها أليس الأجدر والأجدى أن نبحث عن حرف آخر يستحق تبوّأ (تبوّؤ) هذا المقعد وبعد أعمال الفكر... رأينا أن الظاء أجدر).

فاستناداً إلى ما سبق بيانه وشرحه وتفصيله أقول : إن الضاد من الناحية العملية ليس لها اليوم غير نطق أصلي واحد جارٍ على الألسنة هو صوت الظاء نفسه فتمليكها على اللغة وتجنيد العرب تحت لوائها هو في الواقع تمليك الظاء بتعبير آخر ولذا فلسنا في حاجة إلى أعمال الفكر والبحث عن حرف هو في فمنا وبين أسناننا ! كنا نتمنى إلغاء الظاء وإبقاء الضاد لكليهما كما يفعل عرب المغرب الآن لأن الضاد أشهر والكلمات التي تكتب بها أكثر حيث أكد (ش) قلة الكلمات الظائية وأتعب نفسه بمراجعة المعجمات ودواوين الشعراء لا لتكون حجة لتفضيل الضاد ــ كما هو متوقع ــ بل على العكس لتفضيل الظاء الأمر الذي سنأخذ به ولكن بأدلة أخرى ! وزيادة في المعلومات فإن مجموع ما ورد في القرآن الكريم 866 ظاء تكررت في 29 مادة برقم وجدناه في تلك الكراسة و لانزال نتطلع إلى من يفيدنا بعدد الضادات التي جاءت في القرآن الكريم أيضاً موازنة بين العددين. وعلى كل حال فما القلة والكثرة إلا سبب ظاهري سرعان ما يترك ولا يعتمد عليه إذا قورن بأسباب جذرية عملية هي الآتية :

ا ــ الاختلاف في نطق الضاد اختلافاً كبيراً عند أبناء الأمة الواحدة في مختلف الأزمنة والبقاع حيث وجدنا من يلفظه دالاً مفخمة أو مرققة أو طاء أو يلفظه زاياً أو لاماً مفخمتين أو ظاء وربما غير ذلك بينما لا يلفظ الظاء إلا بصوت واحد هو الغالب الجاري على الألسنة في معظم البلدان العربية، وربما وجدنا قلة تلفظ الظاء زاياً مفخمة اقتداءً بغير العرب.

ب ــ تلفظ الضاد ظاء قراءة أو تجويداً أمر معمول به من الناحية الدينية والشرعية ولا يقبل غيره من الحروف كما ذكرنا سالفاً.

ج ــ بسهولة يمكن تحويل كتابة الضاد إلى ظاء وذلك بإنزال عمود على الضاد بينما إذا أردنا تحويل الظاء إلى ضاد فسنضطر إلى شطب العمود النازل عليها أو حكه الأمر الذي يشوه منظر الكلمة ويفسد الخط كهذه الصور :

ضاد ظاء ظاء ضاد

(ضـ) ← (ظ) .(ظ) ← (ظ).

العربية لغة الضاد : ــ هذه مسألة مهمة لا بد من توضيحها ومعالجتها فيما نحن عاكفون على توحيد الحرفين حيث يقول (ج) : (شاعت عند أهل العربية قديماً وحديثاً والتي ربما كانت معروفة في القرن الثالث أو في مطالعه عند العلماء، وقد تلقفها شاعر العربية المجيد أبو الطيب المتنبي حيث قال :

وبهم فخر كل من نطق الضا
د وعود الجاني وغوث الطريد.

وأداره كل من عرض لهذا القول ــ العربية لغة الضاد ــ في بحثه ومنهم ابن غانم المقدسي فجاء به شاهداً على أن الضاد خاص بالعربية).

أقول : كل الآخذين هذا القول لفظاً أو معنى قديما وحديثاً والذين ذكر معظمهم وفصل الحديث عنهم (ش) هم في الحقيقة عيال على المتنبي تابعين

ومقتدين لأنه أقدم منهم (كمهيار وشوقي وصالح الجعفري وعبود الكرخي وگيرْدْنر ومحرر الضاد من الموسوعة العربية الميسرة ومجلتي الضاد الحلبية والضاد العراقية). وزاد (ش) فقال (من هذا التتابع يبدو كون العربية لغة الضاد والعرب الناطقين بها وحدهم أمر لم يعرف قديما... فلعل المتنبي هو الذي اخترع هذا المعنى استناداً إلى مالعله طرق سمعه من صعوبة نطق الأعاجم بهذا الحرف). وخلص إلى القول : (فإذا كان الأمر على هذه الصورة فإن خصائص الظاء النادرة تجعل منها شعاراً للعربية وراية تعلو ساريتها وبهذا نستطيع أن ننادي بصوت عربي فصيح ندى ــ العربية لغة الظاء ــ لا الضاد). وعند هذا الحد لا يسعني إلا مناقشة العالمين الباحثين معتمداً على ماسبق بيانه من أن أهل مكة وما والاها من بلاد الحجاز وأهل الشام وبعض أهل المشرق والعراقيين وربما غيرهم من البلدان العربية إنما ينطقون الضاد كالظاء المعجمة. وهل نسي (ش) قوله : (فلننظر في شجون هذا الحرف ــ يعني الظاء ــ الذي يوحده العراقيون مع الضاد ويلغون هذا الأخير من النطق ويقون عليه في الخط).

أقول : ما قيمة الخط وما فائدته والرسمان هما لصوت واحد ؟ فإذا قال المتنبي : وبهم فخر كل من نطق الضاد أو قال كل من نطق الظاء فليس ثمة فرق بين التعبيرين لأن اللفظ واحد والمعنى واحد ولأن الحرفين هما في الحقيقة والواقع حرف واحد جارٍ على ألسنة العراقيين بمن فيهم المتنبي ذلك العراقي الصميم !، لم يتلقف شيئا جديدا لأن وحدة الحرفين وامتزاجهما صوتاًولفظاً قديمة وليست بدايتها في القرن الثالث كما لم يخترع معنى استرشاداً بأعجمي. ومن جارى المتنبي فقد جاراه بوحدة الضاد والظاء أي بلفظ واحد يمثله في الكتابة والخط رسمان. فإذا خشينا الالتباس في وحدة الحرفين صوتاً لا في تلفظ المتنبي ومن قلده بخاصة بل فيمن ينطق الضاد بعامة فإن تسمية اللفظ المشترك بينهما (ظاداً) ! لا ضاداً ولا ظاء كفيلة لازالة ذلك الالتباس إبقاءً على ما قيل من جهة وتثبيتاً لنطق الحرف موحداً من جهة أخرى. وبذلك يجوز أن نكتب قول المتنبي هكذا (وبهم فخر كل من نطق الظاد !). وأن نكتب ما أورده (ش) عن الخليل هكذا (**والظاد** عربية لم تعط أحد من العجم) وما أورده عن ابن جني والقلقشندي هكذا (كون **الظاد** حرفاً تنفرد به لغتنا عن سائر اللغات) محافظين بهذه التسمية الجديدة على مزج الحرفين وموسعين المعنى المقصود في آن واحد.

إن كتابة جميع الكلمات الضادية بالظاء سيحل لنا مشكلة تاريخية ويعفينا من الاختلاف ويجمعنا على نطق واحد ناجين ممن يلفظ الضاد دالاً أو طاءً أو زياً أو لاماً... الخ ومع ذلك فإذا أخطأ البعض فإن خطأه حينئذ في تلفظ الظاد الموحدة سيكون على كل حال أهون وأقل من الخطأ في الرسمين. ولهذا الاجراء الثوروي، إذا جاز التعبير، آثار ومضاعفات لا بد من توضيحها وتسويتها ولا سيما علاقته بالتراث والثقافة في المخطوطات والمطبوعات والمكتوبات قديماً وحديثاً. ومن حسن الحظ فالتدبير سهل والعلاج بسيط وذلك بتنبيه المبتدئين والمتعلمين وإفهامهم : أن العرب فيما مضى كانت تكتب حرف (الظاد) بصورتين هكذا (ضـ ظ) وإننا اليوم إذا طبعنا مخطوطاً أو أعدنا طباعة مطبوع فإما أن نكتب (ظاده) بصورته القديمة (ضـ) أو ننزل عموداً على قاعدته ليصير ظاداً (ظ) بصورته الجديدة.

وتطبيقا لما شرحناه فسنختار بعض الكلمات التي ترد في المعاجم بلفظ واحد ذي رسمين. كل رسم منهما لمعنى كالآتي :

ــ البيض ــ من الحيوانات لا سيما الطيور
و ــ البيظ ــ بيض النمل.

ــ ضن ــ بخل و ــ ظن ــ رجح.

ـ التقريض ـ صناعة القريض و ـ التقريظ ـ المدح.

ـ حضر ـ ضد غاب و ـ حظر ـ منع.

ـ الضهر ـ أعلى الجبل ومنه ضهر البيدر وضهر القضيب وضهر الصوان وهي أسماء لمواقع في لبنان و ـ الظهر ـ مصدر، ما يقابل البطن، ما غلظ من الأرض.

ـ الضاهر ـ الوادي، أعلى الجبل و ـ ظاهر البلد ـ خارجه.

ـ ضهور الشوير ـ مصطاف في لبنان و ـ ظهور ـ بروز بعد خفاء، جمع ظهر.

ومن الغريب العجيب أننا نجد في المعجم (فاض) و(فاظ) بلفظ واحد ومعنى واحد هو (مات) ولكنهما برسمين. فلنكتف بذي الظاء لأن المبذرين كانوا إخوان الشياطين !. وسنوحد هذه الكلمات المعجمية في كتابتنا الجديدة ونكتبها بالظاء للمعنيين كما نكتب سائر الكلمات ذوات المعنى الواحد هكذا :

(البيظ) من الحيوانات لا سيما الطيور والنمل.

(ظن) بخل، رجح

... الخ.

بقِيَتْ العلاقة بين كتابتنا الجديدة وخط المصحف، فإن القرآن الكريم وإن كان أعز كتاب لدينا ولكننا لا نقلد خطه ولا نتبع رسمه في كتاباتنا لأننا نرى أهميته وقدسيته في ألفاظه ومعانيه التي نزلت وحياً. فهي عندنا بالدرجة الأولى أما كتابته التي ندعوها خط المصحف ففي الدرجة الثانية، مع العلم أنه ليس هناك فرق كبير أو اختلاف شديد بين الكتابتين يحول بيننا وبين قراءة القرآن ومطالعته ومراجعته. ولن تصير كتابة الضاد ظاء أبعد من كتابة الصلاة ـ الصلوٰة وأنزلناه ـ أنزلنه وادراك ـ ادريٰك والملائكة ـ الملٰئكة وغيرها من الكلمات.

لقد تطور الخط العربي وتحسنت حروفه وارتقت الكتابة بمرور الأزمان والأجيال فقد كانت غير واضحة تتشابه فيها الحروف ويلتبس بعضها ببعض ثم اتضحت وتكاملت تدريجاً. وكانت غير مشكولة فصارت مشكولة وكانت حروفها مهملة فصار بعضها معجماً ودخلها افتنان وتزيين على أيدي الكاتبين والخطاطين، فلماذا لا نستمر في تطويرها سيراً نحو الكمال مبتدئين مرحلة جديدة كي نجاري العصر عصر التيسير والسرعة والتوحيد ؟!

وفي الختام إليكم ملخص البحث في النقاط التالية :

(1) يلغى رسم الضاد ويرسم ظاء توحيداً لكتابتهما ولفظهما.

(2) يسمى الحرف الموحد (ظاداً) كي تدل التسمية الجديدة على اشتراك الحرفين وعلى العلاقة القديمة بينهما.

(3) تسمى (أمة الظاد) و(لغة الظاد) تصديقاً لشاعر العربية الأكبر ومن اقتدى به من جهة وتبييناً لأهمية صوت الظاء أيضاً من جهة أخرى.

ملحوظة : ـ لا ينفذ ما جاء في اقتراحي هذا من اجتهادات وتعليمات ولا يعمل بها إلا إذا أقر بالاجماع من جهات رسمية مختصة.

وليكن معلوماً أني لست مخرباً ولا مفسداً في دعوتي هذه بل أنا مجتهد مصلح لا يهمني سوى خدمة عربيتي وعروبتي. ولي رجاء ممن يقبل فكرتي أو يرفضها أن يعزز رأيه بالحجج والبراهين العقلية والنقلية بعيداً عن الأمور الذاتية والتأثرات العاطفية. فما رأيكم ـ دام فضلكم ـ وماذا تقولون ؟؟!